اسم الدرس : تفسير سورة الحديد ج1

تصنيف الدرس :مجلس تفسير

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد (صلى الله عليه و سلم) إن شاء الله اليوم نستفتح سورة الحديد.

مكية أم مدنية؟

سورة الحديد فيها معاني عظيمة جدا، واختلف فيها العلماء اختلافا كبيرا، هل هي مكية أم مدنية؟ وإن كان جمهور المفسرين، بل بعضهم نقل الإجماع على أنها مدنية ولكن الطابع للآيات الأولى في السورة مع بعض الآيات يغلب عليها الطابع المكي.

وهذا يحدث في بعض السور مثل الحديد والتغابن في وسط الجزء الثامن والعشرين، أن الجزء يكون مدنيا، ثم فجأة تجد سياق الآيات أقرب إلى الطابع المكي.

مقدمة سورة الحديد، الكلام فيها كثيرا عن الله ، لم أر سورة فيها مقدمة مثل هذه المقدمة في الكلام عن الله، وتلك المقدمة كانت محط اهتمام كثير من العلماء ، بل كانت محط اهتمام كثير من السلف .. فالغالب والله أعلى وأعلم أن سورة الحديد مدنية ، وممكن أن يكون هناك بضع آيات نزلت في مكة، وممكن على القول بتكرار النزول تكون نزلت مرة أخرى بالمدينة.

المُسبّحات:

سورة الحديد يسمونها من المسبحات التي تبدأ بالتسبيح (سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحديد :١]

والمسبحات بدأت بسبحان في الإسراء، وهذه (الحديد) أول المسبحات التي بدأت بفعل التسبيح (سبح)، ثم تأتي الحشر والصف والجمعة التغابن .. وهناك حديث وإن كان فيه ضعف على أن النبي (صلى الله عليه و سلم) كان يقرأ بالمسبحات كلها قبل أن ينام[1] وإن كان حملوها من غير سورة (الإسراء) ويروى أنه قال (صلى الله عليه و سلم) : (فيهن آية خير من ألف آية)، وابن كثير رجح أن

[1][عن العرباض بن سارية:] أَنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأُ المُسَبِّحاتِ قبلَ أنْ يَرْقُدَ، يقولُ: إنَّ فيهِنَّ آيَةً خيرٌ من ألفِ آيةٍ

الترمذي (٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي ٢٩٢١ • حسن غريب

تلك الآية هي قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد :٣] والتي جاءت في مقدمة تلك السورة .. وهذه الآية لها فضل عظيم سيأتي الحديث عنها بإذن الله

سياق نزول سورة الحديد:

سورة الحديد (على قول أنها مدنية) لو تحدثنا عن زمان نزولها، يصعب أن نصل إلى مرحلة دقيقة من زمانها .. وفي قوله تعالى(لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً) [الحديد: ١٠] .. سياق الآيات (قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) فبعضهم قال أن تلك السورة نزلت بعد فتح مكة وقبيل غزوة تبوك ونزلت في جو فيه عسرة في الإنفاق، وقالوا نزلت في وقت فيه تجهيز جيش العسرة، وبعضهم قال أنها نزلت قبل الفتح وكانت كالبشرى بحدوث فتح مكة ..

وأيا كان؛ فواضح أن سياق السورة نزل في وقت كان فيه أزمة مادية لنصرة دين الله (جل و علا) مثل جيش العسرة .. كان هناك ظروف طاحنة وأزمة اقتصادية ومادية والمال كنا نحتاجه لنصرة دين الله، وليس لمجرد احتياج للطعام والشراب، كان هناك خطوة لنصرة الدين، ونحتاج فيه إلى المال .. مثل ما حدث في جيش العسرة، وبعضهم أكد فعلا على ذلك القول أنها نزلت في جيش العسرة، مثل قول ابن عطية ورواه الضحاك.

الحكمة= إسقاط الآيات المناسبة على الواقع

الشاهد، أن أهمية ذلك يوضح لك أن القرآن لم يترك موضعا إلا ويخبرك أن في ذلك الموضع_وأنت كنفس بشرية _ماذا تحتاج من المعاني ؟

في موضع البلاء مثلا: وإخوانك حاولوا أن يسجنوك أو يؤذوك، جاءك بمعاني في سورة يوسف أنت تحتاجها ، حينما تمر بمشاعر الخوف على الرزق أو الأمن أو غيرها، هناك مشاعر معينة أنت كبني آدم في حاجة إليها، و تجد معاني مثلا في سورة القصص أو طه أو غيرها من السور .. كل موقف تمر به كفرد أو نمر به كأمة نحتاج فيه إلى معاني إيمانية الله (جل و علا) بيَّنها في القرآن، والموفق من وفقه الله وسدده لاختيار الآيات التي يحتاجها في الواقع الذي يحتاجه .. وهذا بالضبط معنى (الحكمة) ...(وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) [البقرة: ٢٦٩] .. إذن الحكمة أن تؤتى فهم الآية ثم تؤتى فهم واقع الآية ثم تسقطه على الواقع الذي تحتاجه .. ذلك معنى الحكمة.

والخلل في الإسقاط أحيانا يؤدي إلى الخلل في الفهم والتطبيق والعمل، فالحكمة أنك تحتاج معاني في وقت معين، فكذلك كإنسان تمر بأزمة مادية أو كأمة تمر بأزمة، فالواحد منا يحتاج إلى معاني معينة وهذه المعاني موجودة في سورة الحديد.

فعندما تمر الأمة بأزمة مادية وهناك حروب بينها وبين المشركين وهناك ضغط ولا نستطيع التصرف، هنا تأتي سورة الحديد.

أهمية النور في سورة الحديد:

لذا من المعاني التي تكررت أكثر من مرة خلال السورة .. معنى (**النور**) .. فسورة الحديد تعطيك النور في الأزمات .. وأعلى نور جاءت به السورة في أولها هو نور معرفة الله (جل و علا).

كيف أن معرفة الله إذا دخلت قلبك تحول حياتك إلى نور وتجعلك ترى كل شيء على حقيقته، ترى المال على حقيقته (آية 7 وآية 10)، ونور يعرفك حقيقة الدنيا (آية 20)، ونور يعرفك المؤمن من المنافق (آيات 12 إلى 15)، ونور يعرفك ماذا تحتاج لكي لا يقسو قلبك (آية 16)، ونور مع المؤمنين والشهداء والصديقين يوم القيامة، ونور يعرفك حقيقة القدر (آية 22)، ونور يعرفك حقيقة القتال في سبيل الله وأنك كنت تنظر له على أنه مغرم وأمر مكروه، وفي الأخير نور في فضل أمة النبي(صلى الله عليه و سلم) ..

وفي ثنايا السورة أيضا جواب على ماذا لو ابتعدنا عن هذا النور؟

الشاهد، أن في وقت الأزمات أنت تحتاج إلى نور، من غيره يسيء الفهم والتصرف وتسئ الاختيار ... فعندما تكون في مأزق وتحتاج إلى المال لنصرة دينك، والغرب الكافر يستطيل عليك بما معه من قوة، وأنت غير قادر على التصرف أو لا تعرف كيف تتصرف ؟؟

أحيانا قد تخطئ التصرف، تتوتر وتأخذ قرارات خاطئة تذل نفسك أو تتنازل عن جزء من الدين ... لذا هناك معاني أنت تحتاجها في ذلك الوقت، أهمها هي المعاني التي افتتحت بها هذه السورة.

وأيضا تأتي الآيات من 12 إلى 15 تتكلم عن المنافقين، ففي هذه الأوقات تحديدا يظهر التمايز بين المؤمنين والمنافقين ويظهر فيها المنافقون ظهورا جليا وواضحا؛ فتكون من رحمة الله (جل و علا) أن

تحدث تلك الأزمات قبل الفتح العظيم؛ لكي ينظَّف الصف من المنافقين وننطلق إلى الفتح ونحن خُلص منهم ..

نبدأ ..

مقدمة السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحديد:١]

أكثر السور التي تبدأ بالتسبيح تأتي في الغالب بطلب أو أمر من الله للمؤمنين، ولكن مع بيان أنه غني عنهم؛ ليعلمهم أنهم لو تكاسلوا أو ترددوا في هذا الأمر فالله غني عنهم وإنما طلبه منهم لأنفسهم وليس له.

مثل سورة الجمعة لما تركوا النبي في الخطبة وانصرفوا إلى التجارة وتركوه قائما يخطب (قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [الجمعة: ١١]، بدأت سورة الجمعة عندها بالتسبيح في صيغة المضارع (يُسَبِّحُ لِلَّهِ ..) ليدلهم على أنهم وإن تركوا الأمر وانصرفوا، وهناك مخلوقات قائمة بالتسبيح ولا تزال لا تنصرف عن طاعته.

لذا في تلك السورة هناك لحظات تردد في البذل لدين الله، وهذا التردد يمر الإنسان به في فترات الضيق؛ لأن في فترات الرخاء لا يتردد أحد في الإنفاق، كلهم يريد البذل والظهور ساعة النصر .. أما ساعة القتال والضيق (وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَاقَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا) [الأحزاب: ٢٠] فلا !

لذلك يقول تعالى (.... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ) [الحديد: ١٠] من أنفق ساعة الأزمة والضيق أفضل .. وسنأتي على ذكر السبب عند بيان الآية..

فهناك لحظات تردد للمؤمنين، وأخرى للمنافقين (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ..) [الحديد: ١٤]

إذن تلك اللحظات من التردد لأن هناك أناس لا زالوا لا يستطيعون أخذ القرار سواء من المؤمنين

وقرارهم في الانتقال إلى مرحلة البذل وقت الضيق، ومن المنافقين قرارهم في انتقالهم إلى صف أهل الإيمان .. فتبدأ السورة بالرد عليهم أن الله غني(سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي ..)

مقدمة سورة الحديد تحتاج إلى معايشة .. لا تحتاج لتفسير أكثر من احتياجها إلى قلب يعايشها.

لا تكاد تفيق من المعنى المبهر للآية، حتى تفاجأ بالآية الأخرى تطوف بك.

إذا تعايش قلب المؤمن مع مقدمة تلك السورة سيظل يرفرف لا يستطيع السكون، يلف الكون والمخلوقات إحاطة بالزمان والمكان وحركة مستمرة وهيمنة غير عادية في بداية تلك السورة.

وأحد المفسرين حاول جمع الأسماء والصفات التي ذكرت في تلك المقدمة وجدها كثيرة جدا.

جمعها ابن عاشور مثلا في 16 اسم وصفة، وغيره روى عن بعض السلف أن فيها اسم الله الأعظم، وبعضهم حاول تفسيرها أن من يستطيع أن يجمع في قلبه المعاني الإيمانية لأول 6 آيات من السورة استطاع أن يصل إلى معنى اسم الله الأعظم ومن يدعو الله (جل و علا) بهذه الأسماء والصفات الموجودة في أول السورة سيستجاب له .. انظر كيف كان الاهتمام بتلك الآيات.

نقلة خارج الأزمة :

بدأت ب(سَبَّحَ) للماضي (لِلَّهِ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إحاطة للسماوات والأرض (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .. كل من في السماوات عبيد يسبحونه طوعا أو كرها،

العجيب أن القرآن دائما ينقلك نقلة شعورية ونفسية غير متوقعة .. أنت تعيش في أزمة المال وكيف نصرف ؟ وكيف ننصر الدين، والخوف على الدين أن يُغلب !

فجأة القرآن يأخذك خارج تلك الدوامة النفسية، ويرفعك عاليا فوق السماوات والأرض وتنظر على الأمر من علو، ثم تنزل لتعايش المشكلة بطريقة أصوب .. لما تعايشها بنفسية العبد الضعيف الفقير الذي لا يملك المال ويريد أن يقاتل، بخلاف أن تعايشها بنفسية العبد الرباني المتصل بالله الذي يوقن ب(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) [المدثر ٣١]

لما تعيش كإنسان بشري طيني لا يدرك إلا الأسباب ستصاب بالإحباط واليأس، ولكن عندما تعيش المشكلة بنظرة ربانية للكون، تعيشها بنظرة أخرى .. نظرة اطمئنان وسكينة.

(سَبَّحَ لِلَّهِ..) نقلة خارج الأزمة !

لذلك لا تجعل أي حدث يستغرقك .. أخبار ، أحداث ، مشكلات.

استغراقك في تلك الأحوال يجعلك تنسى تلك المعاني التي وردت في سورة الحديد؛ لذا بدأت بها تلك السورة .. وقلنا أن تلك السورة نزلت في أزمة.

فهذه المعاني دائما نحتاجها في الأزمات .. معرفة الله بهذه الصورة نحتاجها في الأزمات.

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد :٢] ... ليس فقط يسبحونه، بل هو مالكها، لو خرجت عن طوعه قهرها الله (جل و علا).. لا شيء خرج عن طوعه،

له وحده ملكها ولا يملكها غيره (جل و علا) ..

(يُحْيِي وَيُمِيتُ) قمة الهيمنة في الإحياء والإماتة ..

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الملك :١] جاء بعدها مباشرة(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [الملك :٢] .. فدائما ما تأتي صفتي الإحياء والإماتة للدلالة على هيمنة الله على خلقه وأنهما صفتان لا يملكهما إلا الله (جل و علا).

إيجادك من العدم أو أن تتحول إلى الحياة بعد الموت أو الموت بعد حياتك، فقرار إنهاء حياتك لا يملكه إلا الله .. فمهما حاول الإنسان أن يقتل نفسه فبإذن الله (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [آل عمران: ١٤٥]

من أعجب ما قرأت، أحد من ذُكر في موسوعة جينيس، أنه حاول الانتحار 18 مرة، وكل مرة يفشل ! كلما حاول أن يقتل نفسه يتم إنقاذه .. لماذا ؟ لم يأت الإذن من الله بعد !

حياتك ليست بيدك ،(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) [آل عمران: ١٤٥].

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحديد: ٢]

حينما تعيش تلك الآيات، تعيش معنى أنك عبد لذلك الإله الذي له تلك الصفات، وكنت قبلها تفكر في أزمتك أو مشكلتك دون استحضار صفات ربك، وأنه على كل شيء قدير .. وقد أخبرك الله

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) [محمد ٤]

الله وضعني في ذلك المكان أو الموقف لينظر ماذا سأفعل، وليس لأنك إذا لم تنصر الدين فسوف يقع أو يُغلب ! .. أبدا .. لقد وضعني في ذلك الموقف لينظر ماذا أفعل لنصرة الدين في وقت الأزمات !

وقت الأزمات يظهر المؤمن من المنافق، يوضح الفضل بين الناس وقت الأزمات، كما قال تعالى (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ .....) [الحديد: ١٠]

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) وليس فقط قادرا على الإحياء والإماتة بل(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .. على كل شئ خطر ببالك ولم يخطر ببالك .. وليس قادرا فحسب، بل هو "قدير" بصيغة المبالغة !

آية خير من ألف آية :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد :٣]... تلك الآية تحتاج إلى وقفة طويلة ! فنمر عليها سريعا .. فتلك الآية كما رجح ابن كثير أنها آية خير من ألف آية، وكثير من العلماء أفرد لها كتابة محاولة لغوص فهم الأربع أسماء والصفات التي لم ترد إلا في تلك الآية ... فقد جاء فيها اسم "الأول" وفي نفس الوقت "الآخر" .. وهو "الظاهر" وفي نفس الوقت "الباطن" ... فكيف ذلك؟؟ كما كان نبينا يقول (اللهم أنت الصاحب في السفر) وفي نفس الوقت (والخليفة في الأهل).[2]

فذلك لا يفعله ولا يقدر عليه إلا الله !

[2][عن عبدالله بن عباس:] كان أعوذُ بكَ منَ الضَّيعةِ في السفرِ والكآبةِ في المنقلبِ اللهم اقبِضْ لنا الأرضَ وهوِّنْ علينا السفرَ فإذا أرادَ الرجوعَ قال آيبون تائبون لربِّنا حامدون رسولُ اللهِ ﷺ إذا أرادَ أن يخرُجَ في السفرِ قال اللهم أنت الصاحب في السفرِ والخليفةُ في الأهلِ اللهم إني فإذا دخل بيتَه قال توبًا توبًا لربِّنا أوبًا لا يغادرُ علينا حَوبًا ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، مسند علي ٩٣ • صحيح •

تلك الآية، جاء أحد تلامذة ابن عباس(لا أذكر من) وهو حزين، فسأله ابن عباس : مالك ؟ فقال له : شيء في صدري ؟ قال : ما هو ؟، قال : والله لا أقول !

قال ابن عباس : شيء من شك ؟ .. فضحك الرجل، فطمأنه ابن عباس وقال له : لم ينجُ أحد من ذلك، فادفع عن نفسك بهذه الآية (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[3]

ففهم تلك الآية ومعايشتها يدفع حالة الوسوسة، ويحولك من حالة الشك إلى حالة اليقين، وكتب فيها ابن القيم كتابة رائعة في (طريق الهجرتين) في معايشة تلك الآية !

فدعونا نعيش مع معاني تلك الآية :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) .. ما معنى الأول والآخر ؟

قال بعضهم ذلك إحاطة زمنية، والظاهر والباطن إحاطة مكانية .. فالله (جل و علا) أحاط بالزمان وأحاط بالمكان .. كما ورد في حديث عمران بن حصين المشهور أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "كان الله ولم يكن معه شيء "[4]

يعني كان هناك فترة لم يكن هناك مخلوقات، والله ابتدأ الخلق ! كل مخلوق موجود جاء عليه وقت (لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) [الإنسان :١] فالله (جل و علا) هو الأول قبل تلك المخلوقات، وهو الآخر بعد كل مخلوق.

الله (جل و علا) هو الأول في حياتك ! فأول علاقة تمت في حياتك كانت بينك وبين الله ! فالله (جل و علا) مسح على ظهر آدم !

وأي سبب أو شيء تحتاجه فالله (جل و علا) هو الأول قبله،

---

[3](أثر في سنن أبي داوود وحسنه الألباني)

[4][عن [عمران بن الحصين]: "كانَ اللَّهُ ولم يكن شيءٌ معه وَكانَ عرشُهُ على الماءِ ثم كتبَ في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ"

ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى ٥٥١/٦ • صحيح

لذا يقول لك ابن القيم لا تتعلق بالأسباب وتعلق بمن ابتدأ الأسباب كلها (الأول)، فمن تعلق بالسبب تعلق بمعدوم، من تعلق بشيء لم يكن موجودا ثم إذا وجد الآن أصبح غير موجود بعدها .. فلماذا تتعلق به إذن ؟!!

تعلق بالذي أوجده والذي يبقى بعده.

فمن يتعلق بـ (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) كأنه يقول لله (جل و علا) : يا رب أشهد أنه ليس سواك في الكون، فأنت أول من خلقت، وتبقى بعد موت المخلوقات !

فالأول والآخر يجعلك تملأ حياتك بالله (س) .. إذن فالله هو الأول والآخر، كما ورد في الحديث : "كان الله ولم يكن معه شئ " ، أو قول الله (جل و علا) (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ .....) [الإنسان: ١]

أين كنت ؟ ومن أتى بك ؟

فما الذي يجعل الإنسان دائما يعلق قلبه بالأسباب؟

لأنه دائما يتعلق بالسبب الأقرب إليه ... ولكن ارجع بدائرة الأسباب إلى مبتدئها، فمن خلق مبتدأ سلسلة تلك الأسباب، ومن خلق منتهاها ؟!

فالتعلق الحقيقي، ومن أراد التعلق بالحق وليس بالعدم، فليتعلق بالحي (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان: ٥٨] ... فلماذا تتوكل على المعدوم؟

لو توكلت على ذلك السبب قد يتركك في لحظة؛ لأنه لم يكن موجودا في وقت من الأوقات، ومن لم يكن موجودا ثم وجد، فسيأتي عليه يوم وينتهي !

وإن كان ذلك السبب شخص أو مال أو أرض، أو مطر .. أيا كان السبب فكلها مخلوقات.

بل حتى الملائكة، كما ورد في الأثر[5](وإن كان فيه ضعف) أن **جبريل جاء إلى سيدنا إبراهيم**

[5]وما يروي أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل: سل ، قال " حسبي من سؤالي علمه بحالي " ليس له إسناد معروف وهو باطل ، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال " حسبي الله ونعم الوكيل " قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد

فقال له : هل لك حاجة ؟،

قال : أما منك فلا !

فهو يتعلق بالحي الذي لا يموت ..

إذن هو الأول قبل كل سبب، والآخر بعد كل سبب !

(وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)**.. ما معنى الظاهر ؟**

قيل : الظاهر يعني الأعلى، أي أنه فوق كل شيء (سبحانه)، فقالوا أن هذا دلالة على استواء الله على العرش، وبعضهم قال أن الظاهر من (الظهير) وهو النصير، أي أن الله (جل و علا) يغلب كل أحد (وذلك أقرب إلى معنى العزيز) .. وآخرون قالوا أن الظاهر هو الواضح في كل خلقه (سبحانه)، فلو نظرت إلى أي شيء ستجد الله (سبحانه) في كل شيء من خلقه واضح ..

فاسم الله الظاهر، أي أنك في كل طلعة شمس تعرف قدرة الله، في حركة القمر، في خروج النبات من الأرض، في نزول الجنين، في دعائك واستجابته، في معرفة الجنين كيف يرضع ومعرفة الطائر كيف يبحث عن رزقه، في معرفة كل شيء .... (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: ٥٠]

فاسم الله الظاهر يعني أنك أينما نظرت ستعرف قدرة الله !

ولكن في نفس الوقت هو "الباطن" لن تستطيع أن تحيط به علما !

إذن قيل الظاهر في العلو (المكان) ، والظاهر في القدرة والغلبة ، والظاهر في الوضوح ..

وبعضهم قال أنه وإن لم يظهر للبشر قدرته (جل و علا)، فالله يقدر أحداثا ترى فيها قدرته واضحة جلية، مثل خروج إبراهيم من النار دون أن يُحرق ، إذا رآها الكافر يعلم أن ذلك لم يفعله إلا الله !

كما يروى في الإسرائيليات أن آزر قال له بعد خروجه : نعم الرب ربك يا إبراهيم !

حين : (قَالَلَهُمُالنَّاسُإِنَّالنَّاسَقَدْجَمَعُوابَكُمْفَاخْشَوْهُمْ) وقد روي أن جبريل قال : قال هل لك من حاجة ؟ قال "أما إليك فلا " وقد ذكر هذا الامام أحمد وغيره

ابن تيمية ، مجموع الفتاوي (183/1)

وحديث ذكره ابن كثير في تفسير سورة الأنفال في قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...) .. بعد نزولها ذهب أبو طالب وهو مشرك إلى النبي (صلى الله عليه و سلم) وقال له : يا بني، إني أخاف عليك، أو تدري ماذا يريد قومك أن يفعلوا بك ؟ قال له : نعم، وقرأ عليه الآية (...لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال ٣٠]، فأبو طالب اندهش : كيف عرفت ؟ قال النبي : أخبرني ربي .. فقال له : نعم الرب ربك يا محمد، استوصي به خيرا ! قال : بل هو يستوصي بي خيرا ![6]

الشاهد أنه أحيانا تحدث أحداثا ظاهرة لا ينكرها إلا جاحد ، كما حدث في غزو بدر (غزوة الفرقان) ... حدثت فيها تلك الأحداث ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة!

يعني بالرغم من أن اسم الله الظاهر في كل آية، لكنه يفعل أفعالا (كخلق عيسى بغير أب)؛ لكي يكون الظهور واضحا تماما ، فمن أنكره استحق الخلود في جهنم !

ويروى في أثر ذكره الإمام الطبري أن فرعون لما ضرب موسى البحر وشُق نصفين، ومر موسى ومن معه، فوصل فرعون إلى البحر فوجده مشقوق نصفين، فكان المفترض بعد أن رأى ذلك أن يؤمن، حتى أن الجنود خافوا وبدأوا يدركون أن موسى نبي، فنظر فرعون لجنوده وقال : ألا ترون البحر فُلق خوفاً وفرقاً مني !(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) [الزخرف :٥٤] ،(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) [طه: ٧٩] !

والعجيب أنهم صدقوا فرعون ودخلوا البحر !!

أحيانا الآيات مهما كانت واضحة إلا أن بعض الناس تصر على العناد والكفر والجحود .. ونعوذ بالله من ذلك!

---

[6] قَالَ سُنَيْد، عَنْ حَجَّاجٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ عَطَاءٌ: سَمِعْتُ عُبَيْد بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: لَمَّا ائْتَمَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيُثْبِتُوهُ أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ، قَالَ لَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ: هَلْ تَدْرِي مَا ائْتَمَرُوا بِكَ؟ قَالَ: "يُرِيدُونَ أَنْ يَسْحَرُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي"، فَقَالَ: مَنْ أَخْبَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: "رَبِّي"، قَالَ: نِعْمَ الرَّبُّ رَبُّكَ، اسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا فَقَالَ: "أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ؟ ! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي"

[ذكره ابن كثير ، رواه الطبري في تفسيره (٤٩٣/١٣

- وذكرفيتفسيرابنكثيرايضا:

وذكرأيبطالبفيهذا،غريبجدا،بلمنكر؛لأنهذهالآيةمدنية،ثمإنهذهالقصةواجتماعقريشعلىهذاالائتماروالمشاورةعلىالإثباتأوالنفيأوالقتل،إنماكانليلةالهجرةسواء،وكا نذلكبعدموتأبيطالبنحومنثلاثسنينلماتمكنوامنهواجترءواعليهبعدموتعمهأبيطالب،الذيكانيحوطهوينصرهويقومبأعبائه .

أما الباطن : قيل أي أنه بالرغم من وضوح وظهور آيات الله، إلا أنه لا يستطيع أحد أن يحيط بحقيقة كنهه (سبحانه) أبدا مهما أوتي من علم !

والمعنى الثاني للباطن : القرب، كما أن الظاهر (علو المكان) قالوا أن الباطن (قرب العلم).

ومعنى الباطن هنا تفسيرا لقول الله (جل و علا) :(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق: ١٦] أي : **أن الله هو الأقرب إليك من كل شئ** .. ذلك من معاني الباطن ..

يعلم ما بصدرك، لذلك قال بعض العلماء أن الآيات (4 :6) في سورة الحديد تفسيرا لتلك الأسماء، فقالوا تفسير الباطن في قوله (جل و علا) (وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [الحديد : 6]

لذلك من قواعد أهل السنة والجماعة في إثبات صفات الله، إثباتها بغير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ...

كيف يفعل الله ذلك ؟ لا نعلم .. لكننا نوقن بذلك !

والمعنى الثالث للباطن هو أنه كما أن ظاهر كل شيء يدل على الله، فباطن كل شيء أيضا يدل على الله (جل و علا) ..

استغراقك داخل أي شيء، يجعلك تقول : سبحان الله !

فكما أن ظاهر الجسم يدل على الله فباطنه كذلك يدل على الله، فظاهر النبات يدل على الله ، وكذلك باطنه.

إذن دعونا نأخذ الأربع أسماء جملة (د 33 : 43)

ما من حدث يحدث ، وما من سبب موجود ، وما من مخلوقٍ موجود إلا والله (جل و علا) له أول وآخر وظاهر وباطن ..

لنعطي مثالا على الرزق :

فما من سبب (كالرزق) موجود إلا والله قبله، والله آخر بعده، أي سيبقى بعده وإن زال ذلك السبب، والله (جل و علا) ظاهر فوق ذلك السبب، والله (جل و علا) أقرب إليك من هذا السبب ..

مثال آخر :

عدو تحاربه .. (سبب)

الله (جل و علا) أول قبل ذلك العدو أي هو الذي أوجده، والله (جل و علا) آخر بعد ذلك العدو أي أنه قادر على أخذه ولا يفلته، والله (جل و علا) ظاهر فوق ذلك العدو فهو القادر عليه، والله باطن لذلك العدو فهو أقرب إليه من حبل الوريد، فهو القادر على قصمه في لحظة لعلمه بما يخطط ويمكر !

عش مع تلك الأسماء عند أي مشكلة تقابلك .. الأول والآخر والظاهر والباطن.

تجد أن المشكلة ليست موجودة، في الأسباب، و في الأرزاق ، وغيرها .. تجد أن نفسك هدأت واطمأنت .. !

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .. ليس فقط بالسبب أو بالرزق أو بالعدو، بل هو بكل شيء عليم (سبحانه) .. إحاطة زمنية (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ)، وإحاطة مكانية (وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) ..

لذا تنزل في قلبك السكينة والطمأنينة ... فليس هناك خوفٌ بعد معرفة ذلك !

الله أتي به، وهو القادر على أخذه .. الله يقدر عليه، وهو أقرب إليه من نفسه!

فالله (جل و علا) قادر على كل شيء (سبحانه) ..

كل ذلك كان مقدمة، لتأتي آية (7) يقول الله لك فيها (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا)

إذن تحقيق الإيمان الحقيقي والبذل لله (سبحانه) في وقت الأزمات، يحتاج إلى نور من معرفة الله (سبحانه).

فالقرآن يخاطبنا كبشر، وليس كآلات .. لا يقل لك : افعل ذلك !، و لكن يخاطبك ويعلم أن بداخلك مشاعر كالخوف، كقول موسى وهارون (عليهما السلام) : (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى) [طه : ٤٥]

في ذلك الوقت، قال الله لهما : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه: ٤٦]

لذلك حتى تزول مشاعر الخوف قبل البذل في وقت الأزمات والضيق، تحتاج لنور تلك الستة آيات في أول السورة ..(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْأَخِرُ...) [الحديد : 4]

كما طوفنا في الزمان والمكان، وتسبيح ما في السماوات والأرض، رجعت الآيات لتحكي أول لحظات الخلق ... رجعنا إلى نقطة الخلق؛ لأننا قد نحمل أمورا عظاما مثل سقوط الخلافة أو تربص الأعداء بنا، و نظن أن الحل في التاريخ، و إنما هو قبل ذلك فالحل هو الرجوع إلى أول قصة الخلق، و التفكر فيها و الإيمان بها.

سنة التدرج

(في ستة أيام) يروى عن بعضهم، عن سبب ذكر (ستة أيام) هنا؛ لأن الله لا يعجل بعجلة أحد، فالله (جل و علا) قادر على خلق السماوات والأرض في لحظة، ولكن خلقها في ستة أيام لكي لا يكون في صدرك أيها البشر الضعيف المسكين الذي ليس لك من القدرة شيء إلا ما أعطاك الله، حتى لا يكون في صدرك حرج من سنة التدرج ..

فالتمكين يأتي بالتدرج في أيام .. ويأتي في موعده (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر: ٤٩]

الهيمنة الشاملة

(يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا...) [الحديد:٤] ، لم يخلقهم ويتركهم، بل هو القائم عليهم ..

والعلم هنا ليس علما بأشياء معينة (ليس علما جزئيا) ، وإنما هو أقصى درجات العلم (العلم بالشيء المتحرك) ..

فكما تطلب من أحدهم أن يراقب عدد من البشر في تحركاتهم، يصعب عليك أن تتابع تحركاتهم متابعة دقيقة ..

أما ذلك فلا يبعد عن الله (سبحانه) !

(يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)

وبالرغم من ذلك : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم)

أين ستذهب ؟؟

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).. نيتك ، ما بداخلك ، أثناء فعلك (تَعْمَلُون) جاءت بصيغة المضارع لدلالة الاستمرارية في الفعل.

الكون كله محاصر، فكما ذكر ابن كثير في تفسيره عن بعض الآثار، أن كل قطرة مطر ينزل معها ملك، يقرر لها أين تذهب (بأمر الله) ..

هيمنة، كل قطرة مطر، كل دودة تدخل الأرض، كل شحنة كهربائية، كل ميت يُدفن .. كل ما يلج في الأرض، وما يخرج منها : نبات يخرج من الأرض فالله (جل و علا) يقدر متى يخرج وأين يخرج، ولا يخرج إلا بإذنه ..

(وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ) : كل الأوامر الشرعية أو القدرية التي تنزل، وكل الأرزاق، وكل الخير الذي ينزل من السماء يعلمه الله (جل و علا).

(وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) : كل عمل يرفع فالله (جل و علا) يعلم إن كان صالحا أو فاسدا، كل دعاء يُرفع، لا شئ يضيع، كل ملك يرفع إليه (سبحانه) الأعمال (يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار).

إحاطة، هيمنة .. في السماء والأرض، مادية ومعنوية ، صغيرة وكبيرة ، تُرى أو لا تُرى.

كل شيء يعلمه الله (جل و علا)

ثم يأتي الخطاب المباشر لك :(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ).. **إذن أين ستذهب ؟!**

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الحديد :٥] .. الملكية التامة له سبحانه.

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) [الحديد : ٥]

قيل : قبل أن تُفعل تلك الأمور تستأذن أن تحدث، كما أن الشمس تستأذن في كل مرة تشرق فيها، فكل أمر قبل أن يحدث يستأذن، فلا يحدث إلا أن يأذن له الله (جل و علا)

وقيل : كل أمر بعد أن يحدث فمصيره يكون بيد الله (جل و علا)، فعاقبة الأمور سواء كانت خيرا أم شرا ، فعاقبتها راجعة إلى الله.

يعيدك لذات المعاني في (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ).

فغياب تلك المعاني يجعلنا نتعامل مع الأسباب وننسى المسبب .. ننسى من الذي بدأ السبب ومن الذي يبقى بعده، ومن هو الظاهر ومن الذي أقرب إليك من ذلك السبب !

نسيان تلك المعاني يجعلك تتعلق بالأسباب ، فعند ذهابها يصيبك الإحباط، وعند إتيانها تمسك بها خوفا من أن تضيع ! ننسى من الذي أتى بها !

كثرة الاستغراق في الأسباب والمشكلات تنسيك قدرة الله المطلقة !

تلك الآيات تحتاج تكرارها لما فيها من معاني .. لذلك جاء في الأذكار تكرار (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) مائة مرة؛ لأنك ضعيف وتنسى !

والأسباب والمشكلات حولك تطغى على معرفة الله في قلبك .. فيصيبك الران !

كما سيأتي : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ...) [الحديد: ١٦]

القلوب تقسو عندما تسئ التعامل مع آيات الله، وتنسى تلك المعاني !

(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) . هو الذي يملك كل شيء ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [الحديد : ٦]

ابتدأت السورة بأن كل شئ يسبح وهو يملكها جميعها، وهو الأول قبلها والآخر بعدها ، والظاهر فوقها والباطن لها (سبحانه) .. ثم يعلم حركتها، ثم هو يداخل بين الأشياء ... فكما قال (سبحانه) في سورة الروم (غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) [آية ٢ ،٣]

فمن يفعل ذلك التداخل بين القوتين ؟ ومن القادر على أن يجعل تلك الغالبة اليوم، تكون مغلوبة غدا؟

(لله الأمر من قبل ومن بعد)..

التداخل بين الليل والنهار يفعله الله، التداخل بين القوتين الظاهرتين في الأرض حينها يفعله الله .. حتى الشاه القرناء التي تنطح الشاه الجلحاء، ذلك بقدرة الله (جل و علا) ثم يقتص الله منها يوم القيامة.

كل التداخلات الكونية يفعلها الله (سبحانه)، سواءا في الزمان أو المكان أو القوى أو الأسباب.

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) [الحديد : ٦]

الاستجابة لأوامر الله نتيجة بديهية لمعرفة الله حق المعرفة

بعد كل ذلك يأتي الأمر : (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا ...) [الحديد: ٧]

فتخر ساجدا بعد تلك المعاني التي أدركتها .. ذلك هو الإيمان !

لذلك مناقشة قضايا الشريعة، في برامج باهتة، مع نساء متبرجات، في حديث بارد عن كيفية تطبيقها ! .. ليس ذلك هو الدين !

فقبل أن يأتي الأمر بالإيمان، جاءت ست آيات تطوف بك الكون كله في معرفة الله !

كذلك يتعامل مع ذلك الدين، فالدين نزل ثقيل (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) [المزمل: ٥]، نزل به جبريل ، فلا ينبغي أن يُتعامل معه بتلك السطحية والبرود !

فأوامر الدين لكي تُطبق لا بد أن يسبقها معاني الإيمان ..

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر: ٢١] .. من خشية الله وليس من انبهار فكري أو إعجاز لغوي، بل قبل كل شيء (مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) !

فلكي نحقق الإيمان والبذل الحقيقي وقت الأزمات، نحتاج لذلك فلا نحتاج إلى إقناع بقدر احتياجنا إلى الإيمان.

(مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) [الحديد: ٧] ، ما معنى مستخلفين فيه؟ هو الذى أتى بالمال إليك، و استخلفك فيه، ثم يُذهب بك و تموت ويستخلف غيرك فيه ... تلك هي دورة الحياة !

فكما أنك مجرد خازن لذلك المال، فعندما يطلب صاحب المال من الخازن أن يخرجه فيما أراد، فلا يتساءل لماذا .. ؟ ... فأنت مجرد خازن !

فعن مطرف عن أبيه، أن النبي كان يقرأ بآلهاكم التكاثر فقال : يقول االبن آدم مالي مالي ، قال : وهل لك ا بن آدم من مالك إلا ما أكليت فأفيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت![7]

فلا يخرج شئ ويعبر من القنطرة سوى مالك (الصدقة).

بعد المقدمة أمرهم الله بأمرين الإيمان و الإنفاق ثم سؤالين عن سبب ترك الإيمان و الإنفاق ثم عقب بعد ذلك بنتائج الإيمان و الإنفاق.

[7][عن عبد الله بن الشخير:] عن مُطرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ، عن أبيه، أنَّه انتَهى إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو يَقرَأُ: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١] فقال: يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي مالي، وما لكَ من مالِكَ إلّا ما تصدَّقتَ فأمضَيتَ، أو أكَلتَ فأفنَيتَ، أو لَبِستَ فأبلَيتَ.

شعيب الأرنؤوط (١٤٣٨ هـ)، تخريج مشكل الآثار ١٦٥٨ • صحيح •